

تفسير قوله: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ

..... ثم لما بين أن هذا القرآن العظيم هو الذي أنزله، وهو الذي فصله، وبين حلاله وحرامه وعقائده ومواعظهم وأمثاله وآدابه ومكارمه، وأنه بين هذا بعلمه المحيط بكل شيء -هدد الكفار الذين لم يعملوا به فقال: { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ } التاويل يطلق ثلاثة إطلاقات. أما التاويل في لغة القرآن فهو ما يؤول إليه الأمر، وتصير إليه الحقيقة في فهم الحال؛ وعلى هذا فتاويل القرآن: هو ما يؤول إليه أمره في فهم الحقيقة، وتقع عليه الحقيقة. وهو صدق ما وعد به بأن يدخل من أمن به الجنة ويخلد في نعيمها، ويدخل من كفر به النار ويخلد في جحيمها؛ فهذا تاويله أي ما تؤول إليه حقيقته، ما كان يعد به وينطق به في دار الدنيا، وهذا هو التاويل في لغة القرآن. ويطلق التاويل أيضا على التفسير، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لابن عباس { اللهم علمه التاويل } وقولهم: فلان يعلم تاويل القرآن؛ أي تفسيره. والإطلاق الثالث إطلاق حادث هو اصطلاح الأصوليين لم يكن معروفا في الزمن الأول، وهو أن التاويل حمل اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلى محتمل مرجوح بدليل يدل عليه؛ هذا اصطلاح حادث. والمعروف عند الأصوليين باسم التاويل هو ثلاثة أنواع: تاويل صحيح، وتاويل فاسد، و... فإذا كان التاويل صرف الكلام عن ظاهره المتبادر منه إلى معنى مرجوح ليس هو الظاهر من الكلام بدليل صحيح يدل عليه حقا في نفس الأمر؛ فهو التاويل الصحيح المسمى بالتاويل القريب، ومثاله قول النبي صلى الله عليه وسلم الثابت في صحيح البخاري { الجار أحق بصفيه } . فإن ظاهر هذا الحديث الثابت في صحيح البخاري أن الشفعة ثابتة للجار؛ لأن الصقب والصدق هو ما يلاصق الجار من أرض جاره إلا أنه حمل على محتمل مرجوح وهو أن المراد بالجار هنا خصوص الشريك المفاصم. وهذا احتمال مرجوح إلا أنه دل عليه نص صحيح فحمل اللفظ عليه لدلالة ذلك النص، وهو قوله صلى الله عليه وسلم في حديث جابر { فإذا صرفت الطرق وضربت الحدود فلا شفعة } فعلم أنه لم تكن هناك شفعة إلا مع الاشتراك في الأرض؛ أوفي الطريق كما هو معروف. ومثال التاويل البعيد يمثل له بعض علماء الأصول بعضهم بما يخالفه فيه الآخر، والمعروف عند علماء الأصول أن الأصولي يكون مالكيًا مثلا فيمثل بشيء ضد مذهبه، وقصده فهم القاعدة، ويكون شافعيًا مثلا ويمثل بمثل مخالف لمذهبه.